

الرسول (ﷺ) في طفولته

د. محمد عبد المنعم
خفاجي*

- ١ -

في بيت كريم ، ومن أبوين كريمين ، عبد الله بن عبد المطلب ، وآمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ولد محمد صلوات الله عليه ، يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل ، وقيل ثلثي ربيع الأول ، وقيل ثلثه. والثاني عشر هو أرجح الآراء ، وعليه الجمهور.

كان عبد الله سيد شباب بنى هاشم حسبا ونسبا وشرفا ومجدا . وكانت أمنة بنت وهب أفضل فتاة في قریش شرفا وطهرا وسودا . والتقى النور بالنور ، فولد " محمد " (ﷺ) ، وتقول أمنة : أمرت أسميه " أحمد " (١) ؛ ولكن جده عبد المطلب سماه " محمدا " . ورات آمنه ليلة ميلاده نورا أضاعت به قصور " بصرى " في الشام ، حتى رأتها (٢).

توفى والده عبد الله وأمه حامل به . وقيل : توفى بعد مولد الوليد العظيم بشهرين . وقيل : قبل ميلاده بأكثر من شهرين (٣) ، وختته جده وصنع له مأدبة تفوق الوصف (٤). وحمل عبد المطلب الوليد اليتيم ، ودخل به الكعبة ، وقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ، وعاد بالوليد إلى أمه فدفعه لها.

* أستاذ الأدب العربي بجامعة الأزهر

وكانت النبوءات قد تواترت بميلاد النبي المنتظر الذي بشرت به الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من قبل ، ويروى خليفة المنقرى . قال : سألت محمد بن عدي ، كيف سماك أبوك " محمدا " ؟ قال :

سألت أبي عما سألتني عنه فقال : خرجت رابع أربعة من بني تميم ، أنا لأدهم وسفيان ابن مجاشع وزيد بن عمرو بن ربيعة ، وأسامة بن مالك من خندف ، نريد ابن جفنة الغساني (ملك غسان) ، والتقينا في الطريق براهب في دير ، سالنا عن أنفسنا ، فقالنا : نحن من خندف ، فقال لنا : أما إنه سيبعث فيكم وشيكا نبي هو خاتم النبيين ، واسمه " محمد " ، فلما انصرفنا من عند ابن جفنة - الملك الغساني - وصرنا إلى أهلنا ، ولد لكل رجل منا ولداً فسماه " محمدا " .

- ٢ -

وأول من أرضعه أمه ، ثم أرضعته ثويبة الأسلمية أياما ، وهي جارية أبلى لهب ، فأعتقها لما بشرته بولادة ابن عبد الله ، وكانت ثويبة تلتني إلى رسول الله (ﷺ) بعد زواجه من خديجة فيكرمها هو وخديجة ، وكان (ﷺ) يبعث لها بعد الهجرة بالصلة والكسوة حتى ماتت ؛ ونما محمد (ﷺ) ولما قارب العام التمس له جده الرضعاء ، وحدثت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير هو عبد الله بن الحارث ، ترضعه ، في نسوة من سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، في سنة جذب وقحط لم تبقى لنا شيئا ، قالت حليلة : فخرجت على مطية لنا ، وعندنا ناقة لنا والله ما تجود بقطرة ، وما ننام ليلتنا من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، وما في ثديي ما يغنيه ، وما في نائتنا ما يغنيه ، ولكننا كنا نرجو الفرج

، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما من امرأة إلا وقد عرض عليها " محمد " (ﷺ) فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم ، إذ كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، وكنا نقول يتيم ، ما عسى أن تصنع أمه وجدته ، فكنا نكره أخذه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا العود ، قلت لصاحبي - زوجي - والله إنني لأكره أن أرجع بين صواحبى ولم أخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذه ، قال لى زوجي لا عليك إن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت إليه فأخذه ، إذ لم أجد غيره ، ورجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته في حجرى جاد ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى وما كان ينام قبل ذلك ، فقام زوجي إلى ناقتنا فدرت باللبن ، فحلب منها ما شاء وشرب . وشربنا معه حتى امتلأنا رياً وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة ، وأصبحنا ، فقال لى زوجي اعلمى يا حليلة أنك أخذت نسمة مباركة ، فقلت : والله إنى لأرجو ذلك . وركبت أتانى (مطيتى) وحملت الطفل عليها معي ، فوالله لقطعت ناقتنا مسافات ما يقدر على قطعها شئ من فواره دوابهم ، وقد قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد^(١) وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ، وكانت غنمى تأتي إلى حين قدمنا به معنا شباعاً ، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن حتى كان القوم يقولون لرعاتهم ما بالكم . اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى نؤيب ، فتجئ أغنامهم جياعا ، وتعود غنمى شباعاً .

ولم تزل حليلة ترى من الله أريادة والخير حتى مضت سنتان من عمر اليتيم معنا ، وفصلته ، وكان ينمو فوق ما ينمو الغلمان . فقدمنا به على

أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا .. لما كنا نرى من بركته .. فكلمنا أمه ، قلت لها : لو تركته عندى فابنى أخشى عليه وباء مكة ، ولم لزل بها حتى رنته معنا ، فرجعنا به إلى ديارنا - ديار بنى سعد - ، فرأت حليلة بمقدمه معها النماء والخير والبركة.

- ٣ -

وكان " محمد " (ﷺ) الطفل يخرج مع إخوانه أولاد الحارث بن عبد العزى بن سعد بن بكر بن هوازان ، وهم : عبد الله بن الحارث ، وضمرة بن الحارث ، والشيماء ، وأنيسة ، يغدون ويروحون فى ديار بنى سعد^(١) التى عاش فيها " محمد " (ﷺ) نحواً من أربع سنوات.

وفى يوم من أيام عمره المباركة وهو فى الرابعة .. جاء أخوه ضمرة بن الحارث يعدو ويقول لأبويه : (فيما رواه ابن هشام فى السيرة) أدركا أخى القرشى قد أخذ رجلاً على ثياب بيض ، فأضجعه فشقا بطنه^(٢) ، قالت حليلة : فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً ممتقاً وجهه فالتزمته وقلنا له : مالك يا بنى ؟ قال جاعنى رجلان على ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى ، تقول حليلة فرجعنا به إلى خباننا فقال لى أبوه : يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فالحق به بأهله قبل أن يظهر ذلك به ، فاحتملناه وقدمنا به على أمه .

فقالت : ما أقدمك يا حليلة ، وقد كنت عليه حريصة وعلى مكثه عندك ، فقالت حليلة : نعم قد بلغ الله بابنى وقضيت الذى على ، وتخوفت الأحداث عليه فأدبته عليك كما تحبين ، قالت الأم : ما هذا شأنك يا حليلة أصدقينى

خبرك ؛ فلم تدعني حتى أخبرتها ، قالت آمنة : أتخوفت عليه الشيطان ؟ قالت : نعم ، قالت : كلا .. والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لإبنى هذا لساناً . رأيتُ حين حملت به أنه خرج مني نورا أضاء به قصور " بُصرى " من الشام ، دعيه عنك وانطلقى راشدة^(١).

مكث " محمد " (ﷺ) في ديار حليلة من بنى سعد أربعة أعوام على الصحيح ، وربته حليلة إلى أمه وهو ابن خمس سنين فكانها أخته وهو ابن عام ، ولم تره بعد ذلك إلا مرتين .. حين زواجه بخديجة ، ويوم حنين.

- ٤ -

عاش " محمد " (ﷺ) طفلاً في مكة مع حنان أمه ورعاية جده عبد المطلب ، فكان يجلس معه على فراشه الذي كان يعد له عند الكعبة ، وكان بعض أعمامه يحاول أن يمنعه من الجلوس فيقول له : دعوا إبنى فإن له لساناً ، ويجلسه بجواره على الفراش ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع^(٢) ، وكان يوصي بركة الحبشية (أم أيمن) فيقول لها : يا بركة لا تغفلى عنه فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبي هذه الأمة^(٣).

وهكذا عاش " محمد " (ﷺ) مع أمه في رعاية جده محفواً برعاية الله وحفظه ، ولما بلغ السادسة^(٤) من عمره كان الحادث الأكبر في حياة " محمد " (ﷺ) وهو موت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة على مسافة ثلاثة عشر ميلاً ، ولقد كانت آمنة وفيه لذكرى زوجها عبد الله والد " محمد " (ﷺ) الذي توفاه الله إلى رحمته بالمدينة وهو عائد من رحلة تجارية له ، قدم منها من الشام .. وفي الطريق مرض فعرج على أخواله بالمدينة من بنى عدى بن النجار

فتوفي هناك وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وابنه " محمد " (ﷺ) ابن تسعة أشهر على الأرجح.

ماتت أمه بعد زوجها ودفنت بالأبواء ورجعت أم أيمن بمحمد إلى مكة بعد خمسة أيام من موت أمه^(١٦) فعاش في رعاية جده عبد المطلب. وفي الثامنة من عمر " محمد " (ﷺ) توفي الجد الذي كان قد أوصى ابنه أبا طالب " بمحمد " (ﷺ) لأن أبا طالب وعبد الله أخوان لأب ولم ، أمهما فاطمة بنت عمرو المخزومي ، فكفل أبو طالب ابن أخيه وصار هو الذي يلى كل أموره ، فكان معه كإحدى أبنائه ، وكان أبو طالب فقيراً فائترى وكثر ماله ببركة " محمد " (ﷺ) اليتيم.

ولما بلغ " محمد " (ﷺ) الثانية عشرة من عمره خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في قافلة لتجارة قريش ، حيث أخذه عمه معه ، وقال : والله لأخرجن به معي لا يفارقتي ولا أفارقه.

وفي " بصرى " بالشام لقي أبو طالب بحيرى الراهب (أحد أحبار اليهود) فتحدث معه ، وكان مما قاله بحيرى له : أرجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود وإنه لكائن لابن أخيك شأن عظيم^(١٧).

- - -

نشأ الطفل اليتيم " محمد بن عبد الله " (ﷺ) على مكارم الأخلاق ورفيع الصفات ، ولا عجب ، فقد قال رسول الله (ﷺ) : " أدبني ربي فأحسن تأديبي " وقال تعالى في كتابه الكريم .. " وإني لأعلى خلق عظيم " (١٨) ، ومنذ صغره لم يقرب من صنم ولم يجلس عند صنم ، وحين قال بحيرى الراهب

لمحمد (ﷺ) وهو بالشام في الثانية عشرة من عمره : " أسألك باللات والعزى " رد عليه " محمد " (ﷺ) : لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضى لهما^(١٠) .. وما كان " محمد " (ﷺ) يذهب في حاجة لجده عبد المطلب إلا ونجح فيها ، خرج حيدة بن معاوية في الجاهلية معتمرا فإذا هو بشيخ يطوف ويقول ..

رد إلى خالفي محمدا يا رب رد واصطنع عندي يدا

قال حيدة : من هذا ؟ قالوا : شيخ قریش وسيدها عبد المطلب ، له إيل كثيرة فإذا ضل منها شيء بعث فيها بنوه يطلبونها ، فإذا أعى بنوه بعث ابن ابنه وقد بعثه في ضالة أعيائها بنوه ، وقد أحبس عنه ، فما برحت حتى جاء " محمد " (ﷺ) وجاء بالإبل^(١١).

وعن ابن عباس قال : كان إذا أكل عيال أبي طالب جميعا أو فرادى لم يشبعوا ، فإذا أكل معهم " محمد " (ﷺ) شبعوا. وكان إذا أراد أن يغذيهم قال : كما أنتم حتى يحضر ابني ، فيأتي " محمد " (ﷺ) فيأكل فيفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا ، وإن كان لبنا شرب أولهم ثم العيال فيشربون فيروون عن آخرهم^(١٢).

ويقول علي بن أبي طالب : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : " ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين ، كلاهما عصمنى الله منهما ، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم^(١٣) أهلنا : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان ، فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة فسمعت عزفا بالمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : تزوج فلان بفلانة ،

فجلست أنظر وضرب الله على أذني ، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي .. ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت .. فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي .

كان رسول الله (ﷺ) في طفولته لا يقرب من صنم ولا يحب أن يراه . وعن ابن عباس قال : حدثني لم أيمن قالت : كان (بوانة) صنماً^(١٧) يحضره قريش يوماً في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه وكان يكلم رسول الله (ﷺ) أن يحضر ذلك العيد مع قومه .. فيأبى ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : إنا نخاف عليك ، مما تصنع أبداً من اجتناب آلهتنا ، وجعلن يقلن : يا " محمد " ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ، ولا أن تكثر لهم جمعاً ، فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله أن يغيب ، ثم رجع إلينا مرعوباً فرعاً ، فقالت عماته : ما دهاك ؟ قال : إني خشيت أن يكون بي لم ، فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت ؟! قال : أني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : ورائك يا " محمد " لا تمسه ، قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نبيء^(١٨) .

وقال رسول الله (ﷺ) : رأيتني في غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعبون ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبتيه يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك وأبصر إذ لكمنى لاكم ، ما أراها لكمة وجيعة .. ثم قال لي : شد عليك إزارك ، وفي رواية ابن سعد قيل له : استر .. وهو

غلام^(١٤).

- ٦ -

وهكذا كان شأن " محمد " (ﷺ) طفلاً ، وهكذا عاش " رسول الله " (ﷺ) اثنتي عشر عاماً في طفولته ، بين الخلق الرفيع والأدب الكريم ، والسمو النفسى والروحى العظيم ... صلى الله عليه فى الأولين ، وصلى عليه فى الآخرين ، وصلى عليه إلى يوم الدين ...

المصادر والمراجع

- ١- ٨٩/١ الوفا بأخبار المصطفى ، ٢٠١/١ السيرة النبوية لابن كثير
- ٢- ٩٤/١ الوفا ، ١٦٠ بشائر النبوة الخاتمة د/ رؤوف شلبي (مجمع البحوث الإسلامية ١٩٨٨).
- ٣- ٢٢١/١ العقد الثمين للفاسي ، وقيل أن عبد الله توفي بعد أن أتى على رسول الله (ﷺ) ٢٨ شهرا (١ : ٥٧٩ الطبري).
- ٤- ٣٥ : زاد المعاد.
- ٥- ٤٦/١ الوفا ، ٤٣٤/٤ فتح الباري ، ١٧٨ بشائر النبوة الخاتمة.
- ٦- ديار واسعة جنوب غربي الطائف تشتمل على قرى صغيرة متجاورة الدار الحمراء - اليعاقب - اللهب - المغارة - صلي - مخذ - الصناعات - أهل مرزوق - الغراب - الضباعين وغيرها.
- ٧- راجع مجلة المنهل السعودية بجدة عدد عام ١٣٧٤ هـ مقال للاستاذ / أحمد على بعنوان " زكريات في بلاد بني سعد قوم حليلة السعدية ، وفي هذه البلاد جبال السروات العالية " .
- ٨- حدث شق بطن الرسول (ﷺ) أربع مرات : المرة الأولى هي هذه وهو في ديار بني سعد ، والثانية وهو في العاشرة من عمره ، والثالثة عند نزول الوحي عليه ، والرابعة ليلة أسرى به ، ويقص أبو هريرة قصة شق بطن رسول الله (ﷺ) وهو ابن عشر سنين وأشهر فيما رواه عن رسول الله (ﷺ) : إني لفي صحراء وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ قال : نعم .. فاستقبلاني بوجهه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجد لها لخلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط (الدلائل لأبي نعيم) .

- ٩- ١٦٥/١ ابن هشام ، ١٣٤ أعلام النبوة للماوردي ، ١٩٧ بشارت النبوة الخاتمة ، وراجع كتاب محمد في طفولته وصباه للطفى جمعة ص ٩٥ .
- ١٠- الخصائص الكبرى ٢٠١/١ .
- ١١- الوفا بأخبار المصطفى ١ : ١٢٠ .
- ١٢- على ما تذكره أكثر كتب السيرة ، وفي مقدمتها ابن هشام (١ : ٥٥) ويجعلها ابن بكار أربع سنوات ٢٦٣/٢ البداية والنهاية .. ويروى المسعودي أن وفاة أمنة كانت وهو في السابعة من عمره (١٧١/٢ مروج الذهب) وكان رسول الله (ﷺ) ابن تسعة أشهر أو سبعة أو شهرين ، وقيل أن عبد الله مات وطفله في بطن أمه لم تضعه بعد (١ : ١٤٦) ودفن عبد الله في دار النابغة .
- ١٣- ص ١٣٣ من كتاب " أم النبي " للشناوى ، دار ابن لقمان . وراجع كتاب
- ١٤- " أبو النبي " لمحمد فوزى الصادر عن دار الأنصار ص ١٤٣ و ١٤٤
- ١٥- ٤ سورة القلم .
- ١٦- الخصائص الكبرى للسيوطى تحقيق النشرتى وآخرين ١٩١ و ١٩٢ .
- ١٧- ١٣٩/١ الوفا .
- ١٨- وكان النبي (ﷺ) يشتغل في رعاية الغنم ، ويقول صلوات الله عليه : ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، ف قيل له : وأنت .. قال : نعم . رواه البخارى .
- ١٩- أى ومعه أصنام صغيرة ، وهو الكبير بينها .
- ٢٠- ١ : ٢٢١ الخصائص الكبرى .
- ٢١- ١٥٧/١ الطبقات الكبرى .

